

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة بتاريخ ١٢ من شوال ١٤٣٥هـ / الموافق ٨ / ٨ / ٢٠١٤م

من أوجه العظمة في الحضارة الإسلامية

أولاً- العناصر:

١- عظمة الحضارة الإسلامية وجوانبها الأخلاقية

٢- من أوجه عظمة الحضارة الإسلامية:

أ- العدل .

ب- الرحمة.

ج- احترام آدمية الإنسان.

د- القدرة على العيش المشترك مع الآخرين.

هـ- مراعاتها لحاجات الروح والجسد معاً.

ثانياً - الأدلة:

الأدلة من القرآن:

١- يقول تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا

تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المائدة: ٨].

٣- ويقول تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ

أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات: ١٣].

٤- ويقول تعالى: { لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ }

[الحديد: ٢٥].

- ٥- ويقول تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا } [البقرة: ١٤٣].
- ٦- ويقول تعالى: { وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ } [هود: ١١٧].
- ٧- ويقول تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الحجرات: ١٠].
- ٨- ويقول تعالى: { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ } [آل عمران: ١٠٣].
- ٩- ويقول تعالى: { وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [الحشر: ٩].

الأدلة من السنة والآثار:

- ١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) قَالَ: أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ أَنَّ هِرَقْلَ قَالَ لَهُ: سَأَلْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكَ (يعني النبي صلى الله عليه وسلم) فَرَعَمْتَ أَنَّهُ أَمَرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ قَالَ وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيِّ. [صحيح البخاري].
- ٢- وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي" [صحيح البخاري].
- ٣- وَعَنْ عَائِشَةَ (رضي الله عنها) قَالَتْ: قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ عَلَى النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) فَقَالُوا: أَتَقْبَلُونَ صِيبَانَكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَقَالُوا: لَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نُقْبَلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): وَأَمَلِكُ أَنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ؟" [سنن ابن ماجه].

٤- وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ (رضي الله عنهما) قَالَ: " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ تُلَّتِي بِصَبِيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ، قَالَ: وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسُبِقَ بِي إِلَيْهِ، فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ، فَأَرَدَفَهُ خَلْفَهُ، قَالَ: فَأَدْخَلْنَا الْمَدِينَةَ، ثَلَاثَةَ عَشَرَ عَلَى دَابَّةٍ [صحيح مسلم].

٥- وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو (رضي الله عنهما) قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم): «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، أَرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِيمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ» [سنن الترمذي].

٦- وعن جابر الجعفي عن الشعبي قال: وجد علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) درعه عند رجل نصراني، فأقبل به إلى شريح القاضي يخاصمه، قال: فجاء علي فقال: هذا الدرع درعي ولم أبع ولم أهب، فقال شريح للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى علي فقال: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟ فضحك علي وقال: أصاب شريح، مالي بينة، ففضى بها شريح للنصراني، قال فأخذه النصراني ومشى خُطَى ثم رجع فقال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يدنيني إلى قاضيه يقضي عليه، أشهد إن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق، فقال: أما إذ أسلمت فهي لك، وحمله على فرس. [البداية والنهاية لابن كثير].

٧- وذكر ابن عساكر أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور كتب رسالة إلى سوار بن عبد الله قاضي البصرة قائلاً له: انظر الأرض التي يخاصم فيها فلان القائد فلاناً التاجر فادفعها إلى فلان القائد. فكتب إليه سوار: إن البينة قد قامت عندي أنها لفلان التاجر، فلست أخرجها من يديه إلا ببينة، فكتب إليه أبو جعفر المنصور: والله الذي لا إله إلا هو لتدفعها إلى فلان القائد! فكتب إليه سوار: والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجتها من يد فلان التاجر إلا بحق! فلما جاءه الكتاب قال أبو جعفر: ملأها والله عدلاً، صار قضاتي يردونني إلى الحق. [تاريخ دمشق لابن عساكر].

الموضوع:

الحضارة الإسلامية عظيمة وعريقة، وتراث المسلمين مليء بالكنوز والجواهر الثمينة التي اندثرت عبر تاريخ طويل، ولا ينبغي أبداً أن تكون حالة الضعف والتردي الحضاري التي يعانيها المسلمون اليوم محبطة ومثبطة لعزائمننا، فهي مرحلة مؤقتة لا تساوي في عمر الزمن شيئاً.

لقد بنى المسلمون حضارتهم على دعائم قوية وقيم أخلاقية راسخة كالعدل والرحمة والحق والموازنة بين متطلبات الروح والجسد، والموائمة بين كل طبقات المجتمع.

والعدل من أهم أسس الحضارة الإسلامية، ومن ملامحها التي تدل على عظمتها، إنه من أهم مقومات الحياة الفردية والأسرية والاجتماعية والسياسية في المجتمع المسلم، وقد جعل القرآن الكريم هدف إرسال الرسل هو إقامة العدل، فقال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: ٢٥]، فعظمة النظام الإسلامي تتجلى في أنه يقود أتباعه إلى العدل مع العدو كالصديق، يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨]، يعني لا يحمِلَنَّكم بغض قوم على ظلمهم.

إن العدل في تراث المسلمين وثقافتهم ودولتهم شمل الراعي والرعية، شمل كل طبقات المجتمع دون تمييز أو انحياز بين عظيم وحقير، فهذا الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور يكتب رسالة إلى سوار بن عبد الله قاضي البصرة قائلاً له: انظر الأرض التي يخاصم فيها فلان القائد فلاناً التاجر فادفعها إلى فلان القائد. فكتب إليه سوار: إن البينة قد قامت عندي أنها لفلان التاجر، فلست أخرجها من يديه إلا ببينة، فكتب إليه أبو جعفر المنصور: والله الذي لا إله إلا هو لنُدفعنَّها إلى فلان القائد! فكتب إليه سوار: والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجتها من يد فلان التاجر إلا بحق! فلما جاءه الكتاب قال أبو جعفر: ملائها والله عدلاً، صار قضاتي يردوني إلى الحق. [تاريخ دمشق لابن عساكر]، إنه العدل الذي هو أساس الملك ودعامة من أهم دعائم نهضة الأمم، ولهذا قيل: ((إنَّ اللهَ ينصُرُ الدولةَ العادلةَ ولو كانتْ كافرةً، ويخذلُ الدولةَ الظالمةَ ولو كانتْ مسلمةً)) [كتاب الحسبة لابن تيمية].

وهذا الأصل الحضاري الإسلامي العظيم - العدل - لم يقف عند حدود المسلمين بل أنصف غير المسلمين في الدولة الإسلامية لدرجة جعلت أحد قضاة المسلمين يحكم لصالح نصراني يخاصم الخليفة، فعن جابر الجعفي عن الشعبي قال: وجد عليُّ بن أبي طالب (رضي الله عنه) درعه عند رجل نصراني، فأقبل به إلى شريح القاضي يخاصمه، قال: فجاء عليُّ فقال: هذا الدرع درعي ولم أبع ولم أهب، فقال شريح للنصراني: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصراني: ما الدرع إلا درعي وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شريح إلى عليِّ فقال: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟ فضحك علي وقال: أصاب شريح، مالي بينة، فقضى بها شريح للنصراني، قال فأخذه النصراني ومشى خُطىَّ ثم رجع فقال: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يدنيني إلى قاضيه يقضي عليه، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين، اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق [أي سقطت الدرع] فقال: أما إذ أسلمت فهي لك، وحمله على فرس. [البداية والنهاية لابن كثير].

فما أعظمه نظامًا، وما أعرقها حضارة تلك التي يظلل العدل فيها كل أطراف المجتمع، لقد سادت في حضارة الإسلام ودولته على مر تاريخها وعبر مراحلها المختلفة مفاهيم تهدف إلى القضاء على كل نظم التعسف والاستبداد والإذعان المذل، وعلى كل ما فيه اضطهاد وتنكيل ونيل من كرامة الإنسان وكل ذلك لإعادة كرامة الإنسان إليه ورفعته إلى مستوى الإنسانية اللائق به بغض النظر عن لونه أو جنسه انطلاقًا من قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات: ١٣].

وإذا كان الناس قبل الإسلام قد انقسموا إلى سادة وعبيد فقد سوى الإسلام بين بني الإنسان، ويكفي هنا أن نذكر قول النبي (صلى الله عليه وسلم): «مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ» [سنن النسائي]، وبذلك رفع قدر الرقيق إلى الدرجة التي جعلت ذكوان - وكان بصحبة الحسين رضي الله عنه - يقول لابن الزبير (رضي الله عنهما) وهو من سادات العرب وفي مجلس معاوية (رضي الله عنه) خليفة المسلمين: قال

رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ»، وأنا مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأنت ابن الزبير بن العوام بن خويلد، فنحن أكرم ولاءً وأحسن فعلاً.

ومن أهم الدعائم التي قامت عليها الحضارة الإسلامية الرحمة، وتبدو عناية الإسلام ببث خلق الرحمة في قلوب أتباعه من أول وهلة في القرآن الكريم، فقد افتتحت سور القرآن الكريم كلها - عدا سورة التوبة - بالبسملة التي تشتمل على اسمين من أسماء الله عز وجل - الرحمن الرحيم - دون غيرهما، ففي ذلك دلالة على تقديم الرحمة في الإسلام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه) عَنِ النَّبِيِّ (صلى الله عليه وسلم) قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ لَمَّا قَضَى الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي" [صحيح البخاري]، وقد بعث الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) رحمة لجميع خلقه، يقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ١٠٧]، ومن رحمته (صلى الله عليه وسلم) أنه كان يعطف على الأطفال ويرق لهم، ويقبلهم ويضمهم ويداعبهم، وجاءه ناس من الأعراب فرأوه يُقبَل الحسن بن علي (رضي الله عنهما) فتعجبوا وقالوا: تُقبَلون صبيانكم؟ قالوا: نعم. فقالوا: لَكِنَّا وَاللَّهِ مَا نُقبَلُ. فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): "وَأَمْلِكُ أَنْ كَانَ اللَّهُ قَدْ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ"، ولم تكن مواقف عنايته ورحمته بالأطفال بالمواقف العابرة، بل كانت سمته (صلى الله عليه وسلم) لدرجة أن الأطفال لتعلقهم به كانوا يستقبلونه إذا جاء من سفر ليداعبهم، وكأنه ليس أمامه من الهموم والمشاكل غيرهم! يقول عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنهما): كَانَ رَسُولُ اللَّهِ (صلى الله عليه وسلم) إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ ثَلُثِي بِصَبِيَانِ أَهْلِ بَيْتِهِ قَالَ: وَإِنَّهُ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ فَسَبِقَ بِي إِلَيْهِ فَحَمَلَنِي بَيْنَ يَدَيْهِ ثُمَّ جِيءَ بِأَحَدِ ابْنَيْ فَاطِمَةَ فَأَرَدَفَهُ خَلْفَهُ قَالَ: فَأَدْخَلْنَا الْمَدِينَةَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ دَابَّةً [صحيح مسلم]، لقد شملت رحمته (صلى الله عليه وسلم) البهائم التي لا تعقل، فكان يحث الناس على الرفق بها حتى عند الذبح، فقد روى الإمام مسلم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَبِجَدِّ أَحَدِكُمْ شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبْحَتَهُ»، كما حث على عدم تحميلها ما لا تطيق، فقد دَخَلَ (صلى الله عليه وسلم) حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) حَنَّ إِلَيْهِ، وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم) فَمَسَحَ ذَفْرَتَهُ فَسَكَنَ فَقَالَ: مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ؟ لِمَنْ هَذَا

الْجَمَلُ؟ قَالَ: فَجَاءَ فَتَى مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: هُوَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: أَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟! فَإِنَّهُ شَكَأ لِي أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْبِبُهُ" [المستدرک للحاکم].

إنها الرحمة التي حث عليها النبي (صلى الله عليه وسلم) وأخبرنا أنه لن يرحم الله تعالى إلا أصحابها، فعن عبد الله بن عمرو (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، أَرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِيمُ شُجْنَةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ» [سنن الترمذي]، ولذا لا تعجب حين ترى أن الله تعالى أدخل امرأة النار بسبب حبس قطة وذلك لقساوة قلبها، وأنه تعالى أدخل رجلا الجنة بسبب رحمته بكلب يلهث من شدة العطش فيرقُّ له ويرحمه ويسقيه.

على هذا النحو سار المجتمع المسلم فصار متراحماً يرحم فيه القوي الضعيف، لا يهان فيه يتيم، ولا يذل فيه محتاج، يقوم كل راعٍ فيه بواجبه نحو رعيته، فهذا عمر بن عبد العزيز حاكم الدولة الإسلامية الواسعة يشغله حال امرأة سوداء في مصر، فلقد أرسلت المرأة رسالة إلى الخليفة - وكان بريد عمر (رضي الله عنه) يحمل إليه أي رسالة وإن كانت من آحاد الناس، فخرج بريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتابا تذكر فيه أن لها حائطا قصيرا وأنه يُقتحم عليها منه فيُسرق دجاجها، فكتب: "بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح، بلغني كتابك وما ذكرت من قصر حائطك وأنه يُدخل عليك منه فيُسرق دجاجك، فقد كتبت لك كتاباً إلى أيوب بن شرحبيل - وكان أيوب عامله على مصر - أمره أن يبني لك ذلك حتى يحصنه لك مما تخافين إن شاء الله والسلام"، وكتب إلى أيوب بن شرحبيل: "من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل أما بعد: فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت إليّ تذكر قصر حائطها وأنه يُسرق منه دجاجها وتَسأل تحصينه لها، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها، فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنه حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها وإذا هي سوداء مسكينة فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين فيها وحصنه لها" [سيرة عمر لابن عبد الحكم].

ومن أعظم السمات التي تميزت بها الحضارة الإسلامية أن كونت مجتمعاً مترابطاً تجمع الأخوة جميع أعضائه، فلم تهتم الحضارة الإسلامية فقط بالفرد كفرد، وإنما اهتمت به باعتباره وحدة لبناء المجتمع، هذه الأخوة فرضها الله تعالى علينا وربط بها بين جميع المؤمنين، يقول تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الحجرات: ١٠]، والآية التي بدأت بإثبات الأخوة بين المسلمين ختمت بقوله "وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" أي: اتقوا الله فيما ذكر في هذه الآية من الأخوة لعلكم ترحمون، فتأمل كيف علق الله تعالى الرجاء في رحمته على مراعاة الأخوة!! وكان الله تعالى يقول لنا: لن أرحمكم حتى يرحم بعضكم بعضاً.

إن من أجل النعم التي امتن الله تعالى بها على نبيه (صلى الله عليه وسلم) وعلى الصحابة معه الاعتصام بحبل الله تعالى والتأليف بين قلوبهم، يقول تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} {آل عمران: ١٠٣}، إن هذه الجماعية والاتحاد والتكاتف بين جميع المسلمين من أهم سمات هذا الدين العظيم، وإنك لتستشعر ذلك كل صلاة وأنت تقرأ الفاتحة حين تصل إلى قول الله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} [الفاتحة: ٥، ٦]، فأنت وحدك تصلي وتناجي ربك، فلماذا لم تكن الآية الكريمة: "إياك أعبد وإياك أستعين" بصيغة المفرد؟ ولماذا لم تكن "اهدني الصراط المستقيم"؟ ذلك لأن الله تعالى يريدك أن تتحدث بلسان الأمة كلها، يريد الأمة كلها جسداً واحداً وكياناً واحداً، وفي صلاة الجماعة غاية العبرة، لقد جعل الله تعالى فضلها على صلاة المنفرد سبعا وعشرين درجة، فلماذا؟ مع أن قائلاً قد يقول: أنا في بيتي وحدي أقرب إلى الخشوع وأبعد عن رؤية ما يصرفني عن خشوعي، ولا يكون ثمة مجال لأن يراني الناس فيدخل في نفسي شيء من الرياء! نقول: لا، إن الله تعالى لا يريدك وحدك ولكن يريدك وسط الصف مع إخوانك المسلمين، مع الكيان الكامل للأمة.

هذا المنهج الإسلامي الذي قامت عليه أعظم حضارة هو المنهج الذي تربي عليه قوم غلبهم حب إخوانهم فأثروهم على أنفسهم مع شدة حاجتهم، {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ

هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩]، ولهذا لم ير التاريخ البشري على امتداده مثل هذه الصور التي حدثت من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) يوم الهجرة، يتكافلون ويتكاتفون، عن ابن عمَرَ (رضي الله عنهما) قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُنَا ، وَمَا الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ بِأَحَقَّ بِدِينَارِهِ وَلَا دِرْهَمِهِ مِنْ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ» [مصنف ابن أبي شيبة]، هذه الأخوة حين جمعت قلوب المسلمين صارت الأمة كياناً متماسكاً قوياً، أما حين خفت ضوءها وتغلبت الأثرة والأنانية على الكثيرين حل الضعف في المجتمع وضعف كيان الأمة.

ولقد كانت الحضارة الإسلامية في جوهرها التزاماً أخلاقياً قبل أن تكون حضارة إنتاج واستهلاك فالجانب الأخلاقي - والذي غاب عن حضارات الدنيا قديماً وحديثاً - أهم مرتكزات الحضارة الإسلامية، ومع هذا الالتزام الأخلاقي ومع هذا المنهج القويم برع المسلمون في النواحي العلمية وقدموا إسهامات غيرت وجه التاريخ، وما من علم من العلوم الحديثة إلا وفيه أصول إسلامية عربية تبدو لمن يبحث في تاريخ هذه العلوم، وما ذلك إلا لأن الإسلام حرر عقل المسلم ليتيح أمامه الاستفادة من علوم الدنيا كلها فهضمتها العقلية الإسلامية وأضافت إليها من إبداعات المسلمين ما جعلها حضارة لا تماثلها حضارة، حضارة متكاملة تجمع بين الجانب الأخلاقي والجانب المادي، فالحضارة الإسلامية تتسم بالشمول والتكامل، فهي تنظيمٌ كامل لعلاقة الإنسان بالكون والحياة وعلاقته بربه سبحانه وتعالى، ثم هي تنظم علاقته مع بني جنسه، إنها حضارة الاعتدال والوسطية، وسطية ليس فيها غلو في جانب الروح ولا طغيان في جانب المادة، وسطية توائم بين حقوق الفرد ومتطلبات المجتمع، وسطية تُعنى بعمارة الدنيا لكن هدفها الأسمى هو الآخرة، وصدق الله العظيم إذ يقول: {وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: ١٤٣]، فما أحوجنا إلى أن نعود إلى هذه المبادئ والقيم الأخلاقية والدعائم الحضارية التي تميزت بها حضارتنا عبر التاريخ والتي فيها مساعدتنا في المستقبل، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل مستقبل الأمة مشرقاً ومليئاً بكل خير.